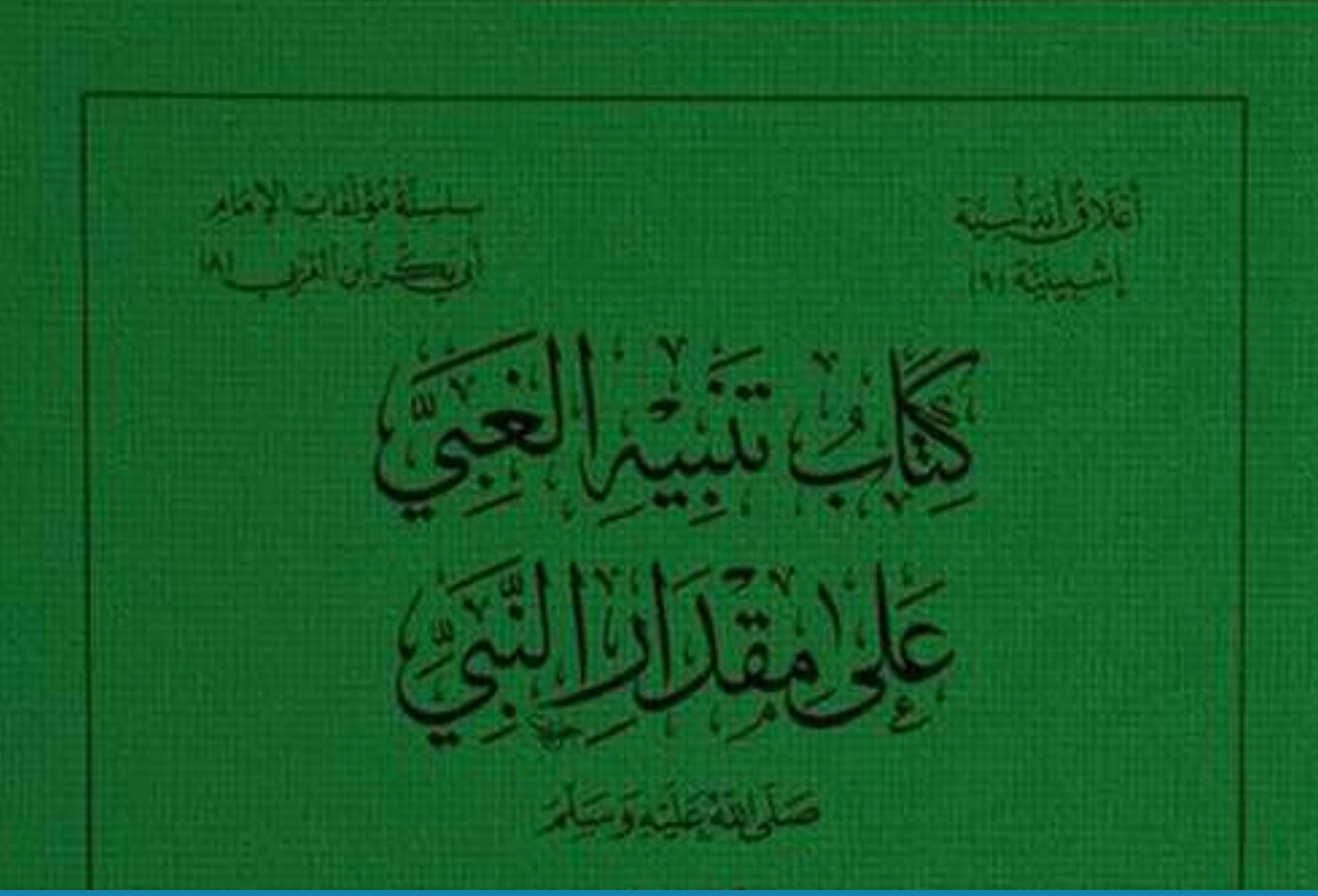

تقديم لكتاب:
تنبيه الغبي على مقدار النبي
ﷺ

قراءة ودراسة وتعليق:
د. عبد الله التّوراتي

موقع د. محمد الطبراني tabarany.com

سَوْقُ الْعَرُوس

حمْدُ الله خيْرُ ما يُجْتَلَبُ عند اشْتراع الكلام، وهو تقْدمةُ التّقْدمةِ ومِسْكُ الْختام، وزكاؤُه ونماؤُه ووفاؤُه: التّصْليةُ الممتّنةُ الصّلات، على نبيّ الرّحْمة المهداة، صَلاةً تتّصلُ ولا تنْفصل، وتُقِيمُ ولا تريم.

وبعْد؛

فقدْ نعِمْتُ بساعاتٍ صحبْتُ فيها تنْبيه ابْن الْعربيّ، وخبرْتُ فيها -بلْ قبْلَها- نباهةَ محقِّقه ومُكْنتَه وشفوفَه، وهو إذْ دَعاني إلى مأْدُبته النّبيلة الْحَفيلة، فقدْ رأيتُ على محكَّم العادة أنْ أجْلُبَ في ممْشايَ إليهِ طاقةَ ريْحان، فينْتظمُ هذا التّقْديمَ أمران: تنْويرُ بعضِ ما انْقدحَ لي من أفكارٍ آخذةٍ بتلابيب الكتاب. وتعْريجٌ لازبٌ على الْقائمِ بشرف إبْداءِ هذه الْعَجيبة الْكامنة، وإبْرازِها مجْلُوّةً أمْتَعَ ما تكونُ لعيْنٍ ولُبّ.

فأمّا الْمَوْعدةُ الأولى:

١- (أ)- فاللهُ أعلم أيَّ علّةٍ حدثتْ بثلاثةِ أعلامٍ متقاربي الزّمن متّحِدِي الْمَشْرَب، إلى أنْ يتواردوا على تضْمين عناوينِ أوْضاعهمْ، وصْفَ «الْغباوة» للطّاعن في مقام النّبوّة... ولكنّ إصْفاقَهم هذَا أيًّا مّا كانَ موئلُه: مؤسّسٌ لضحالةِ كلّ منْ يحْذفُ بحْرَ النبوّة الثّجّاج بحجر عائرٍ عاثر.

وأوّلُ الثّلاثةِ صاحبُنا أبو بكْر، وعنْوانُه بادٍ. وأمّا الثاني فابن خُمَيْر السّبْتي (ت ٦١٤ هـ)، وسمّى كتابَه «تنْزيه الأنبياء، عمّا نَسَبَ إليْهمْ حُثالة

الأغبياء»[1]. وأمّا الثّالثُ فأبو إسْحاق ابن الْبَرّنيّ البغدادي (ت ٦٢٢ هـ)، وعنوان كتابه «تفْهيم الْغبيّ طريقَ تفْخيم النّبيّ»[2].

مقطعُ عنْوانِ كتاب ابن البرني

(ب)- بدا لنا أنْ نُرْخِيَ شراعَ السّؤال على ضفاف النّظَر فنقول: هل كان مصادفةً صرْفةً أنْ تتّفق مواطئُ عياضٍ مع شيْخِه ابْن الْعربيّ فيما تهمّما به واخْتطّاه معًا من التّأْليف في تنْزيه مقام النّبيّ الْأعْظم، ذاك على مشْرَع هذا، وإنْ على ما بيْنهما حِيَن الْمَيْز ما يكونُ بين اللّمْحة الْخاطفة والتّفرُّس الدّائب، وِزَانًا على ما بيْن تنْبيه الْعليلِ وشِفائِه.

وحينَها قدْ لا يقع فهْمُ الْكتابين وما يسْحبُه ساحبُ قضاياهما بمعْزِلٍ عمّا كان يضْطرمُ به المجْتمع الأندلسي المنْفتحُ على تنوُّعٍ دينيّ وعقائديّ ومذاهب فلسفية وكلامية، وما قدْ ينْجرُّ عن فاسِدِها منْ توهينٍ لمستقرّ الثوابت في الوعْي الجمْعيّ للعامّة -وهو أشدُّ ضَرَاوَةً من سَقَطَات الوعّاظ والمفسّرين في أضْعاف تواليفهم، كمُبرّرٍ مُصَرّح به عنْد كليْهما-، ولعلّ

(١) حققه د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠ م.

(٢) مخطوط بأسعد أفندي. وهذا الكتاب أقرب إلى تقرير قضايا السيرة منه إلى النفس الحجاجي الجدلي الذي يميز الوضعين المتقدّميْن.

القاضيين تنكّبا وجْهة الرُّدُود والنُّقود المباشرةِ على هاته الطّوائف الواغلة في تنقُّص منْصب النّبوّة بموارَبة ومُخَاتَلة، تعلّةَ تحقُّقِهما ضعْفَ جدَاها لاسْتيقانِ الدُّعاة بها ولُزُومهمْ لها ظلْما وعلوّا، وكوْنِ مأْتاهم من جهةِ الْغرض الْقاصد لا الْغَلَطِ في التّأويل، فأدارَا الدّفّةَ باقْتدارٍ تلْقاءَ جمْع المومنين، وأَرَاغا مقصِدَ الْبيان إليهمْ، ارْتضاءً لتقديم جلْبِ الملائم لهولاء، على دفْع المؤلم عنْ أولئك.

ويكفي لفهْم دوافِعِهما الْمُضْمرة التّمثيلُ لها بواحدة؛ وهي أدبيّات الْمَسَرّيّة وطعونُها المموَّهةُ في النّبوّة وختْمِها، تلْك المسْتمرّة منْذ الدّاعي الأوّل وحتى عهْد الْقاضيين، بلْ إلى ما بعْدَهما مع ابْنِ سبْعينٍ الرّقوطي (ت ٦٦٩ هـ) وغيرِهِ من أضْرابه، الْحَاكين لمنْواله... وكانتْ دعاواها تقْوى تارةً حتى تعْدِلَ عن طريق الْمَعَاريض إلى الْمُجاهرة، وتضْعُفَ تارات حتى تكْتفيَ بالطّعْن في مسْتلْزمات تصْحيح النّبوّة كالْعمل بالسّنّة، وهو ما مثّل به مُسْتفْتٍ لأبي إسْحاق بن إبراهيم التُّجِيبي، واصفًا إياه بأنّه ممّا «تشغّب به الرّافضةُ منْ أتْباع ابْن مسرَّةَ على فقهائنا بالأنْدلس»[1]... فإنْ كان هؤلاء قد شغّبوا على الْفقهاء -وهم الْفئةُ الْعُلْيا حينَها-، فما أشدَّ اصْطلاءَ الْعامّة بهم، وأنْفَذَ دبيبَ مكْرهم إلى ساحتهمْ!.

وقد كانتْ قضيّة النبوة في لَبّةِ مشْروع ابن مسرّة الجبلي، على حينِ «كان مخالفوه وكثيرٌ من موافقيه -والكلامُ لابْن حزْم- ينْسبون اليه الْقوْلَ باكْتساب النّبوّة، وأنّ منْ بلغ الْغاية من الصّلاح وطهارة النّفْس أدْرك النّبوّة،

---

(١) المعيار للونشريسي: (١٢/٢).

وأنها ليْست اخْتصاصًا أصْلا»[1]، وهذا في قلْب ما عبَّر عنْه بعض الباحثين المحدثين بـ«عُقْدة حسدِ النّبوّة»... وتلْك واحدةٌ من الشُّنَع الموبِقة، وتحْتَها طوامُّ على أثَرِها جُرْمًا وجِرْما.

ويرْتقي ظنُّنا الْغالب إلى صريح اليقين في أنَّ الكتابين معًا -التّنْبيه والشّفا- ينْتظمان عن وعْيٍ في خطّة «تمْنيع» التّديُّن الأندلسي من أوْضارِ مذاهب الإلْحاد التي كانت فطِنةً بمكْرٍ، إلى أنّ توْهينَ رُكْنِ النّبوّة أمْكنُ في صدور الْعوامّ عنْدها لما تبْتغيهِ، منْ دحْضِ قضيّة الألوهية؛ بدليل وعْيِ المؤلّفيْن بما يَفِدُ على الأنْدلس منْ واردات النِّحَل، وخشْيَتِهما على الْعامّة ممّا يجْري في غُضُون كلامِ مُنْتَحِليها وشجونِ أحاديثهم واقْتصاصاتهمْ من المباكتات والتّمْويهات، وأنَّ حقًّا على أهْل العلم أن ينْتهضوا لدفْعِ ذلك بما أطاقوا، كسْرًا لقُرُون الشّيْطان؛ إذْ ذلك واقعٌ في كل زمنٍ بقدْر؛ وهو مؤدَّى قوْل القاضي أبي بكْرٍ في قاصمة: «ولولا أنّ طائفةً نفرتْ إلى دار العلم، وجاءتْ بلُبابٍ منْه؛ كالأصيليّ، والْباجيّ، فرشّتْ من ماء العلم على هذه القلوب الميّتة، وعطّرتْ أنْفاسَ الْأمّة الزّفرة، لكان الدّينُ قدْ ذهب. هذا مع أنّه قدْ رحل قوْمٌ من الضُّلاّل، كمسْلَمَة بن قاسم[2]، ومحمّد بْن مسرّة، فجاءوا بكل مضرّة ومَعَرّة، ورحل الْبلُّوطيُّ ولقيَ الْجُبّائي، فجاء ببدعة

---

(١) الفصل: (٤/١٥١).

(٢) ينبغي التوقف في قبول هذا الحكم على إطلاقه في خصوص مَسْلَمَة؛ فإنه كان محدّثا ناقداً، وإنّما أتي من قِبَل اشتغاله ببعض الممخْرقات، لكنّ الْفصْلَ في هذا يلزمه بحثٌ ليس هنا موضعه.

الْقدريّة في الاعتقاد، ونحْلة الداودية في الأعمال. ولكنْ تَدارَكَ الْباري بقدرته ضررَ هؤلاء بنفع أولئك، وتماسكتِ الحالُ قليلا»[1].

وتأْسيسا على ما مرّ، يمكننا اعتبارُ كتاب تنْبيه الْغبيّ وما يجْري مُجْراه، انْتهاضًا لإطْفاء جذْوةِ الشّكوكية الْخامدة إلى حين، وتلْقيحًا احْترازيًا لعامّة مسْلمي الأندلس وطلَبتها، منْ توابع الطّعون المتستّرة وزَوابعها، ولذلك لا تخْطئُ الْعيْنُ أنّ الأسلوب الذي كتبَ به ابن العربيّ هذا الوضْع ليس هو غايةَ بيانه، ولا منْتهى ما يسْمُقُ إليْه خطابُه في مبْسوطاته على جرْيِ عادته، وفيه نظرٌ منْهُ إلى اعْتبارِ مُعْتَادِ المتلقّي بتيْسيرِ كلامِه للذّكْر، وجمْعِ معاقدِ النّظر وتخْفيفِ وطْأتِها بكثْرة التّقْسيم والتّغْصين المدْرسي، فخلا لأجْل ذلك من بسْط التّعاليل الْكلاميّة، أو التّخْريج النّقْديّ الْعِلّيّ الحديثي المسْتوْفي، أو الرّدّ الْمُوعبِ على الشُّبهات الملْبسة الْمُبْلِسة، إلاّ نُبذًا هي آكدُ ما في الباب... وتفصّى منْ ذلك بالْحَوالة على مطوّلات أوْضاعِه، وإلاّ فكيْف نفْهمُ تذْكيرَه خلال كتابه بما لا حاجةَ للتّذْكيرِ به إلاّ لصغار الطّلبة أوْ عوامّ النّاس، كأقْسام أفْعال المكلّفين[2]، وشرائط النّبوّة[3]... على أنّه ليْس بسائغٍ أنْ يفُتَّ في عضُد ما نحوْنا إليه أن يكونَ «التّنْبيهُ» من تباشير مَا خطّتْهُ أنامل القاضي.

وإحداثياتُ الكتابِ لا تزالُ قائمةً في خريطةِ قضايا المسلمينَ الرّاهنة، لمْ تفقدْ شيئًا من ضرورتِها أو ضَرَاوَتها، ولا انْزاحتْ عنْ واجبات

---

(١) العواصم من القواصم: (٣٦٧-٣٦٨).

(٢) تنبيه الغبي: (٨٩).

(٣) تنبيه الغبي: ٧٧؛ وما بعدها.

الوقْت إلى أرْشيف المناقشات الْبيزنطيّة، فما أشْبه الأمس بالْيوْم، حين ترى منْ طلائع الإلْحاد الجديد وبواكِيرِه الماكرة ورَبِيئتِه، تنقُّصَ كبار الصّحابة الذين عليْهِمْ مدارُ الأسانيد، والتّشْكيكَ في مقتضياتِ تصرّفات النّبيّ ﷺ، وتحْييدَ السّنّة عنْ فهْمِ النّصّ القرآني تنْزيلًا وتأْويلا، ورفْعَ الْقداسة رويْدا رويْدًا عن النّبوّة بالمغالطةِ في بشريّة الرسول حتى يصيرَ واحدًا من أفْناء النّاس، ومنازعَتَه ما وسَمَتْهُ به النّبوّة منْ مَنَاطات الاخْتصاص...وكلُّ ذلك عندهم سلّمٌ متدرّج لمرْقاةٍ بلْ مَهْواةٍ تُفْضي -عنْد الاطّلاع- إلى صرْح هامان.

لا بدْع إذًا أن تبدوَ مسوّغات ابن العربي في تمْتين دِرْعِ مفهوم النّبوّة، قائمةً إلى اليوم، بلْ لعلّها آكدُ الآن منْ يومئذ، فيقومُ كتابُه مع شيْءٍ من التّيْسير التّرْبويّ مقام ما يكتبه دعاتُنا لدفْع الشُّبه، وتلك جهةٌ من جهاتِ وجاهةِ إخْراجِه إلى الناس، مُصحّحا موضّحًا تقْدُمُه دلائلُ التّجْويد، وهي سمةٌ لزمتْ أعمالَ محقّقِه ومُبْرِزِه، وقد آن أنْ نفْردَ له قرْصًا في الْعُرس؛ فيُسْلِمُنا ذلك إلى:

الْمَوْعِدة الثانية:

٢- رحمَ الله صاحبَنا الصّيْرفيّ الفلاّسَ أبا حفْصٍ ما أسَدَّهُ إذْ قال: «السّماعُ رزْق!»، وقد يقيّضُ الله لإخْراج الخبْء -وهو على مرْمى حجرٍ ممّنْ رَامَهُ- مَنْ تعلّقتْ به قِسَمُ التّقْدير، فيسْتأْني الزّمنُ بأسْلاب القرون مِنْ أسفار العلْم منْ ينْهضُ بها نهْضةً مُضَريّة...فعلى كثْرة من ناوَشَ تراثَ القاضي أبي بكر ابن الْعربيّ، وخدَمَ بعْضَ أوْضاعِه، لمْ يتخلّصْ منْهمْ أحدٌ

ليجْعَلَه حَجَرَ دَسْتِه، وعمودَ خيْمته، كما فعل حبُّنا الأصْفى، الأستاذ الدكتور عبد الله التّوْراتي، ولحكْمة مُسْعدةٍ ما، ثقِفَ مسالكَه، وعجمَ عارضَتَه، واسْتمْسكَ بعَوَاصمه، واسْتضاء بقبَسه وسراجِه....وعلِقتْ حبالُه بحبالِه، وأرْخَى شراعَه على ضفافِ آماله، فجاءَ النّتاجُ بحمْد الله حميدا، وطال حبْلُ الإمْداد مَديدا... «وإنّا لنرْجو فوْق ذلك مَظْهرا».

والاشْتغالُ بكتب عَلَم من الأعلام، مَدْرَجٌ سالكٌ للتّحقُّق بمعرفة أطْوارِ حياته، والتمرُّسِ بأسْلوبه وطرائقِ تأْليفه، وتعِلّةٌ سائغةٌ للاعتذار عنْ زَلَقاته، ومُعينٌ على التّعرُّف على الْغُفْلِ منْ كتبه...وما ذاك إلاّ لأنّ اسْتصْحابَ النّظر في تراثه، بما هو ردٌّ لمبادئه على نهاياته، وضرْبٌ للقضايا ببعْضِها في المواطن التي تتردّدُ فيها، مُفْصِحٌ عنْ نَمَطِ تفكيره وذهنيته، وتطوُّر أنظاره، وطبيعةِ مُراجعاته، وتأثّر علْمِه بأطْوارِ عمره وما تلبَّس به في كلّها... فهلْ يرومُ بعْدَ هذا من اخْتصّ بكتابٍ واحد من عَيْبةِ تراثِ عالمٍ بعينه، أنْ يتحصّل له من الْعِرْفانِ بصاحبه، ما تحصّلَ لمنْ جعَلَ كلّ أوْضاعِه مطْبوعِها ومخْطوطِها ومنْسُوبِها مرْكزَ دائرةِ اهْتمامه، وهجّيراه في مُطالعاته وإنْ أمّتْ مَنْزَعًا مخْتلفًا...هل يسْتويان مثلا ؟!، أمْ «عمْرَكَ الله كيْفَ يلتقيان ؟».

والْقصْدُ في المحمودِ ممّا مرّ: ما اخْتطّه الأستاذ الدكتور عبد الله التّوْراتي لنفْسه، منِ اسْتجمْاع مُنَّته في خدْمة تراثِ القاضي أبي بكر -وناهيكَ به-، وما نرْجُوه في ذلك من العائدة، وما نترقَّبُه من الفائدة، يرْفده إلى ما هو بسبيله، شبابٌ مُسْعِفٌ، وذهْنٌ وقّاد، وجَلَدٌ مطّرد، وبيانٌ

عالٍ... فلْيَهْنِه ما خطّتْ أناملُه، وما بَسَطَ بيانُه منْ فكره، بما دلَّ على ثقوبِ ذهْنٍ بعلوِّ اختيارِه، وطِيبِ امْتياره.

أناط الله به سُبُلَ الْخيْر، ورزَقه أنْفالَ العلم، وزَوَاهُ عنْ غوائله، ونفَعه ونفع به، وأدْنَى له قطافَ الأماني؛ وكتبه الْأودُّ الْمُتَداني:

محمّد الطّبراني

بحِمَى مرّاكش؛ في:

عاشر رمضان ١٤٤٠ هـ/ سادس عشر ماي ٢٠١٩ م

د. محمد الطبراني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة القاضي عياض

tabarany.com

twitter.com/oknda1osdqmhbqj